دراسة تحليلية لخطورة اللغة في رؤية الإسلام: نص "السلفية وفتنة التكفير" هجوم معاكس لصوفية مصر" أنموذجا

Tajudeen Yusuf، PhD
Department of Arabic & French Languages
(Arabic Unit)
Kwara State University، Malete،
toyin_72@hotmail.com، tajudeen.yusuf@Kwasu.edu.ng
Tel No: 08167426648

المقدمة

إن اللغة من منظور الإسلام سلاح ذو حدين، فكما أنها تنفع في تهيئة التواصل السلمي وضمانه فإنها قد تكدر صفو العلاقة بين مستخدميها فتتسبب في نشوب الصراعات واشتعال الحروب، ولذلك وضع الإسلام قوانين التواصل اللغوي لأجل سعادة أفراد المجتمع واستمرار العلاقات الإنسانية الرشيدة، وذلك لأن العنف بأشكاله لن ينجح في حماية أية فكرة مهما بلغت قوتها وتعددت مبرراتها. اعتمادا على المنهج الوصفي، تؤكد هذه الدراسة على أن الاتصال اللغوي المشوّه والمصطلحات الهدامة: مثل الصوفية، والسلفية والألفاظ التكفيرية، من شأنها أن تفكك النظم الاجتماعية، وتمنع التشكيل والتلاحم بين العلاقات التي تشكل وحدة المجتمع. وتدعو هذه الدراسة إلى التزام بآداب الحوار ولغة التسامح كوسيلة تعزيز التعايش السلمي بين أفراد المجتمع على اختلاف مذاهبهم العقدية والسياسية، ولا شك أن الأساليب التواصلية الراقية تساعد في إدارة الصراعات أو منعها وخلق مجال للتعايش.

يتمحور هذا المقال حول العناصر التالية:

- **مفهوم العنف.**
- **العنف اللغوي وأثره على المجتمع**
- **تحليل النص المختار**

– الخاتمة

العنف اللغوي

العنف اللغوي هو سوء استعمال الألفاظ والمفردات ضد الآخرين، وهي ممارسة اللغة بقسوة وانتهاك حرمتها التواصلية والخروج باللغة عن وظيفتها الاجتماعية، وقد أقرّ علم اللغة النفسي أن العنف اللغوي يمتزج بالعنف الجسدي بشكل متشابك، إذ إن للعنف اللغوي آثارًا أليمة في المشاعر والعواطف.[١] وفي كثير من الأحيان، يؤدي سوء استخدام اللغة أو عدم المحافظة على أخلاقية التخاطب إلى مشكلات شديدة يمكن أن تسهم في إنتاج جماعات منحرفة، تتمتع بنفوذ ديني واجتماعي وسياسي، فيترتب على ذلك وهن التماسك بين نظم المجتمع. والعنف بمفهومه الاصطلاحي يشير إلى الأعمال العنيفة التي تتضمن استخدامًا للقساوة أو الإجبار من جانب قوى المجتمع ضد الدولة، أو من جانب الدولة ضد المجتمع المدني، أو ضد نفسها.[٢] ولا شك أن العنف بأشكاله في المجتمع البشري قديم قدم الوجود نفسه، وأنه ظاهرة غير قاصرة على عصر دون غيره، إلا أن ظاهرة العنف قد ازداد نطاقها في عصرنا هذا وتعددت ألوانها إلى حد لم يكد يُشْهَد له نظير في العصور الغابرة، وقد ساعد على هذا التوسع انفجار المعلومات التكنولوجية بما فيها وسائل الإعلام والفضائيات وغيرها، ومن ثم تحول عالمنا الكبير إلى قرية صغيرة بحيث يسهل على رياح العنف أن تنقل بذوره من تربة إلى أخرى في زمن قصير للغاية.

العنف اللغوي وأثره على المجتمع

تتبدى الأزمة التي يمرّ بها المجتمع البشري اليوم في جملة من الظواهر السياسية والدينية والاجتماعية، ولعل أخطرها شأنًا وأعمقها أثرًا وأشدها تعقيدًا هو ما يتعلق بالواقع السلوكي اللغوي الذي يتعرض له المجتمع البشري المعاصر. فاللغة التي الأصل فيها أن تكون أداة الاتصال والتفاهم ووسيلة الترابط الاجتماعي قد تحولت إلى أداة الانفصال والتفكيك، وأصبحت أداة لإثارة العنف والصراع.[٣] **ففي قراءة لغوية اجتماعية لكثير من الحوارات والخطابات الدينية التي تصدر عن بعض مشايخ الدين وسادة الجمعيات الإسلامية تتسم بالكثير من العنف والعدوان.**[٤] ولا شك أن الهجوم اللغوي بما فيه

الاتهام والرد بالمثل لا يزيد المجتمع إلا التفكك، فالمجتمع البشري بوصفه جملة من العلاقات التي ينسجها الناس فيما بينهم على سبيل التبادل والتداول بحاجة إلى تعايش الناس بعضهم مع بعض، ولا شك أن ما يجعل الاتصال ممكنا هو الوسيلة الفريدة التي أودعها الله في الإنسان والمتمثلة في اللغة. فقد ندب الله سبحانه وتعالى إلى التراحم والتلاطف واللينة في القول، ودعا إلى تجنّب العنف والشدة في الكلام، قال تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦) ﴾ (سورة إبراهيم: ٢٤-٢٥)

وتتجلى خطورة اللغة في أن أغلب المشكلات السياسية والدينية ترتبط بالمصطلحات والتسميات السيئة التي تتداول في أوساط النخب والسياسيين بغية النيل من المعارضين: (هذا إرهابي)، و(ذاك متطرف)، (هؤلاء الخوارج) و(أولئك وهابيّون)، تلك تسميات العولمة والتي تتكرر في المطبوعات وتروّجها وسائل الإعلام بما فيها الصحف، والفضائيات، وفي الإنترنت حيث لا يكاد يوجد خطاب الناس يخلو من هذه المصطلحات والمفاهيم لأجل النيل ممن يخالفونهم. وعلى المستوى العالمي تظهر هذه الحقيقة في إطلاق أمريكا جملة من التعبيرات السياسية، وعلى رأسها (الإرهاب) واستخدامها رمزاً لغوياً يثير في نفوس الشعوب الموالية لها التعاطف مع الموقف الأمريكي، وتقديم المسوغات والمبررات للشعب الأمريكي ليظل مسانداً لحكومته، ومناصراً لها. إنها لأفعال التضليل اللغوي عبر الإعلام الغربي، لقد استغلت القيادة العسكرية الأمريكية الإرهاب الإعلامي اللغوي لاحتلال الأراضي العراقية ونهب ثرواتها وأموالها وخيراتها يومياً بدون رقيب أو محاسب. [٥]

النص المختار

تعتمد هذه الدراسة على نص مختار على شبكة إسلامية *إسلام أون لاين*، بعنوان (السلفية و"فتنة التكفير".. هجوم معاكس لصوفية مصر)، كتبه مصطفى سليمان،

والمحور الأساسي للنص هو الصراع الحضاري بين الفرق المتصوفة والتيارات السلفية، خاصة في ديار مصر، حيث إن هذا الخلاف قد تطور إلى حد تكفير كل من الطرفين الآخر، ويضاف إلى ذلك اتهام الجماعات المتصوفة بتكفير الحاكم والخروج عن التسامح. ويحتوي النص على بعض مفردات شنيعة وتسميات حضارية واتهامات عبر تعبيرات جارحة مثل (السلفية)، و(الصوفية)، و(السلفية وفتنة التكفير)، و(خرافات المتصوفة)، و(خروج الطرق الصوفية في مصر عن منهجها التسامحي)، **(الجهاد)، و**(الأفكار الجهادية المتطرفة)، و(الخوارج).

النص

"من المعروف تاريخيا أن الخلاف بين الطرق الصوفية في مصر والتيار السلفي تمتد جذوره إلى ما يقرب من قرن من الزمان، فحينما نشأت الحركة الوهابية في المملكة العربية السعودية على يد مؤسسها مُحَمَّد بن عبد الوهاب نشأت بالأساس لمحاربة البدع والخرافات التي ترعرعت في رحاب الطرق الصوفية وفي صوامع الأضرحة ومقامات الأولياء، وتطور هذا الخلاف شيئا فشيئا واتسعت هوته إلى أن وصلت إلى حد تكفير بعض التيارات السلفية التي غالت في حربها ضد خرافات المتصوفة لكل من يقف أمام ضريح ... ولكن طوال هذا التاريخ لم نشهد تصريحا واحدا لمشايخ الطرق الصوفية يتهم أيا من التيارات أو الجمعيات السلفية بالتكفير، والمتغير الجدير بالملاحظة هو خروج الطرق الصوفية في مصر عن منهجها التسامحي ضد المعترضين عليها ..."[٦]

التحليل للنص

يعد المصطلحان لصوفية والسلفية من أخطر المصطلحات الفكرية التي يعاني منها العالم العربي والإسلامي في مجال الصراع الحضاري الديني في المرحلة الراهنة، حيث تقذف

المجتمعات الإسلامية يومياً عبر وسائل الإعلام المكتوبة منها والمسموعة والمرئية بكثير من المصطلحات الفكرية، مثل جماعة تكفيرية، وسلفية وصوفية، وأصولية وما إلى ذلك.

إن العلاقات بين الطرق الصوفية والتيارات السلفية قد شهدت ولا تزال تشهد عبر التاريخ ألواناً من توترات تهدد باشتعال حرب بين الصوفية والسلفية في صورٍ متجددة دائما على الصعيد الفكري والفقهي، وحالة الخصومة بين الطرفين قد وصلت إلى تكفير كل طرف للآخر.

وتعد الدعوة التي قام بها الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية من أسباب الصراع بين السلفية والصوفية حيث حاربت الحركة الإصلاحية التي قام بها الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب البدع وتصدت للطرق الصوفية. وترتب على ذلك اتهام أتباع مُحَمَّد بن عبد الوهاب بالكفر، ولا شك أن السلفية والصوفية في المعنى الحقيقي هو الانتساب لجيل القدوة، بناة الحضارة الإنسانية، ولا تعني بأي حال من الأحوال الانحراف والتحجر والانغلاق والجمود والانقطاع عن التواصل الحضاري وعدم التسامح الحضاري والثقافي من خلال الرؤية الإسلامية السليمة، ذلك أن المذهبية الإسلامية مذهبية مرنة تدعو إلى التضامن البعيد عن البغض والعدوان.[٧]

والخلاف لا يقف عند مسألة التكفير، لكن هناك خلافاً محتدماً بين الطرفين في المسائل العقدية، كما أن السلفيين يوجهون اتهامات للصوفية منها، أنهم يستخدمون (التقية) و(الكذب)، وأن فكرهم يعتمد على التهييج والكذب على الخصوم وعدم الرغبة في الحوار والمصارحة بالألفاظ بعيداً عن الحجج والأدلة. وقد شهدت حقبة التسعينيات من القرن الماضي إلى العقد المعاش أشد المواجهات بين الصوفية والسلفية، وأصبح كل من الطرفين يسعى بالقوة لابتلاع الآخر وإلغائه وإنهاء وجوده من خلال تكثيف الدعاية ضد الآخر.

ومصطلح (الصوفية) من الكلمات التي قد خرجت عن دلالاتها الأصلية إلى دلالات أخرى تداولية في هذا العصر. أصبحت (الصوفية) أو (المتصوفة) في أوساط بعض السلفيين تعني الانحراف العقدي، والكفر، والخرافة، والخروج عن المنهج الإسلامي السليم،

كما أن (التيار السلفي) أو (السلفية) إذا أطلقت بين أغلبية الجماعات المتصوفة يراد بها التكفير، والتطرف، والتشدد، والوهابية وما إليها، وهكذا أصبح للغة في صفوف الأمة الإسلامية سحر خطير فاق حدود التصور. فـ(السلفية) و(الصوفية) أصحاب المنهج القويم الذين يلتزمون بما أنزل الله في كتابه المجيد وما أوحاه الله إلى رسوله الأمين من السنة النبوية، واتبعها الصحابة الكرام ﷺ، الصوفية من حيث مفهومها المعجمي طريقة سلوكية، يقال: تصوّف فلان، أي صار من الصوفية. والتصوف، كما ورد في المعجم الوسيط، طريقة سلوكية قوامها التقشف والتحلي بالفضائل لتزكو النفس وتسمو الروح.[٨]

ويتمثل الهجوم اللغوي والرد بالمثل في تعبير الشيخ الصوفي المصري محمود عفيفي، حيث نص على أن "كل شيوخ أنصار السنة يعتبرون من يدعو إلى تكفير الحاكم هو من الخوارج، ولهذا فنحن نعتبر أن ما يقوله أيمن الظواهري وغيره في هذا الشأن هو من الخوارج".[٩] فمثل هذا التعبير والرد بالمثل بين مشايخ الإسلام – بغض النظر عن الفرق– لن يخلق جوا لوحدة الأمة، وفي العرف التداولي، فإن ترداد تسميات مثل (خرافات المتصوفة)، و(السلفية وفتنة التكفير) ووصف جماعات دينية بـ(الخوارج)، فكل هذه التعبيرات بما فيها من إيحاءات ومعان عنيفة لن تبشر بالخير، وإذا كان العنف هو شعار الخطاب عند بعض سادة الدين، **لا يمكن لنا أن ندفع عن الإسلام اتهامه بثقافة التطرف والإرهاب والعنف والاعتداد بالرأي ورفض الآخر**.

وخلاصة القول أن ما شهدته العقود القليلة الماضية والحاضر المعاش من الأزمات معظمها من انحدار مأساوي في المفاهيم، فمن (الإرهاب) في جميع أنحاء العالم، و(المقاومة) في الشرق الأوسط وخاصة في فلسطين، وإلى فكرة (الجهاد) والقتال لدى بعض جماعات، وإلى (التكفير) والقتل الجماعي والدمويّة في بعض البلدان العربية والإسلامية، وإدراك المعنى الاجتماعي الثقافي، أي المعنى الضمني، له دوره في فهم دلالات الألفاظ ومغزى الكلمات ضمن الجملة في موقف معين أو في محيط اجتماعي معين، لأن هذا المعنى يقتبس من الكلام المستعمل في الحياة اليومية والذي يفسر في مجتمع إنساني، وفوق ذلك، فإن المعنى الاجتماعي– الثقافي – يختلف قليلاً كان أو كثيراً من محيط لآخر ومن موقف إلى آخر.[١٠]

والضرر في رأي سقراط ليس في العنف في حد ذاته، إنما يكمن في سوء استخدام السلطة واللغة بحكم أنهما يعوقان العقل والجمال والانسجام، أي أن ضرر العنف يكمن في الآثار المترتبة عليه.[١١]

والحوادث التاريخية لمعظم الأمم والحضارات تؤكد أن الأمم التي استطاعت أن تتقدم وترتقي سلم الحضارة هي الأمم التي استطاعت أن تخلق حالة التجانس والتعايش والتفاهم بين مختلف الفئات والطوائف وفي مختلف جوانبها النفسية والاجتماعية والسياسية، إنها أمم كتب لها البقاء التاريخي على مرور الأجيال لقدرتها على تحقيق الوفاق الإنساني والسلام العام.

ومن المؤسف أن الدين، والذي الأصل منه أن يكون المركز الأساسي لنشر روح السلم والتضامن الاجتماعي قد تحول إلى مركز لنشر الفوضى والعدوان بسبب فقدان أخلاقيات اللغة التواصلية وحوار التسامح. وأصبحت اتهامات وتسميات جارحة تتداول في أوساط مشايخ الإسلام والعلماء، فأصبحت الحرب الكلامية والاتهامات الطائفية غير المعقولة تتزايد وخاصة في هذه الأيام التي تكتنفها ألوان من الفتن الطائفية التي تعيشها الأمة الإسلامية، تلك الأزمات والنزاعات الطائفية التي يسعى إلى تأجيجها أعداء الإسلام الذين لا يفرقون في عداوتهم بين المذاهب والطوائف الدينية، وتتجلى المأساة الحقيقة في غفلة الأمة الإسلامية عن مواجهة العدو الحقيقي الذي احتل أرضهم ونَهَب خيرات بلادهم.[١٢]

وبالطبع، فإن ثقافة الاختلاف أمر حتمي في التجمع البشري ولا مفرّ منه، بل إن الاختلاف في المسائل الدينية أمر واقع، فكثيراً ما نرى التباين بين المسلمين في وجهات النظر فيما يتعلق بأمور دينهم، والاختلاف بين العلماء والمذاهب الإسلامية في المسائل الفقهية وفي مسائل العقيدة. أما الاختلاف المؤدي إلى الفرقة والبغي والعدوان والتنازع والجرح والتكفير والذي يرمز إليه أحياناً بالخلاف أو النزاع فهذا أمر مذموم ومخالف لتعاليم الأديان السماوية.[١٢] ولا شك أن المذهبية الإسلامية في المجتمع مذهبية قائمة على أساس الوحدة البشرية، فكل الناس عباد الله وأفضلهم هو أتقاهم، إنها مذهبية قامت على أساس

الرحمة والاحترام والتضامن والأخوة. والعنف، نقلاً وعقلاً، يهدم واحداً من أهم أركان الدعوة الإسلامية لأن الدعوة لا يمكن أن يتحقق لها النجاح إلا إذا استندت إلى الدلائل والبراهين وأساليب الإقناع المنطقية، وقامت على الكلمة الطيبة والحكمة البالغة دون عنف أو عصبية.

خاتمة

حاولت هذه الدراسة توضيح مدى تعقد التفاعلات الإنسانية عبر التواصل اللغوي العنيف في المرحلة الحاسمة التي يمر بها التاريخ الإنساني حالياً، ولقد أوضحت الدراسة أن ثغرات التواصل هي من أهم ملامح الحياة الثقافية في المجتمع العربي والإسلامي، ولن تتضح عقول الأفراد اتضاحا كافيا بمعزل عن التأمل الجاد في عمق الكلمات التي يستخدمها الإنسان خلال علاقاته مع أخيه الإنسان، ومن مجموعة المبادئ التي يمكن أن تخلق أجواء للتعايش السلمي والتضامن الاجتماعي على المستوى الثقافي والسياسي والديني بين مختلف الأفراد والجماعات والشعوب هي ممارسة لغة السلوك والاحترام في الخطاب السياسي والديني والإعلامي، والتركيز على ما يجمع ويوحّد، ونبذ ما يفرّق ويمزّق وتجاوز الخلافات الهامشية في سبيل الهدف الأكبر، وصب الاهتمام نحو خطر يتمثل بخطورة التسميات الشنيعة التي تتولد منها الأخطار والصراعات المتنوعة، فالعنف اللغوي عدو للتضامن والوئام، فإن عدم القدرة على التواصل اللغوي من أجل المبادئ المتعالية والاجتماعية والذاتية من أهم الأسباب التي تؤدي إلى إحداث تشقق المجتمع والعلاقات الإنسانية، وقد أثبتت النظرية الاجتماعية والاتصالية بل والتجربة التاريخية الاجتماعية بصورة عامة أنه لا يمكن بناء أي نمط اجتماعي واع من دون النظام اللغوي، والنظام اللغوي كلما حسن استخدامه بين أفراد المجتمع ازدادت نظم المجتمع قوة وتماسكاً، وكلما فقد النظام الرمزي وظيفته الاجتماعية ضعفت العلاقات التي تشكل المجتمع وتلوثت.

الهوامش والمراجع:

١. انظر: لوسركل، جان جاك. (٢٠٠٦م). **عنف اللغة**، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ص ٤٠٠.

٢. الركابي، ساجد أحمد. (٢٠٠٨). العنف السياسي. **مجلة طريقة الشعب**، العدد ٧٨، السنة ٧٤، الأربعاء ٢٦ تشرين الثاني، ص ٩.

٣. انظر: راغب، نبيل، **شرف الكلمة**، مكتبة المحبة، بيروت، ١٩٨٨م. ص ٢٢.

٤. **دشتي، عبد المحسن. (ينيو، ٢٠٠٩). العنف اللغوي وتساقطالألقاب. الدار: ١٤، العدد ٤٢٤، السنة الأولى.**

٥. سعدي، مُحَمَّد. (٢٠٠٦م). **مستقبل العلاقات الدولية من صراع الحضارات إلى أنسنة الحضارة وثقافة السلام**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية،، ص ٣٤٠.

٦. انظر: الموسوعة العربية، جزء ٢/.٦٥٦

٧. انظر: عبد الحميد، محسن،**المذهبية الإسلامية والتغير الحضاري**، ص ٩٠

٨. انظر: **المعجم الوسيط**، مادة (ص و ف).

٩. النص للشيخ الصوفي المصري محمود عفيفي خلال مقابلة إسلام أون لاين.

١٠. شديدة، صالح مهدي، **العلاقة بين اللغة والمجتمع**، ص ٣١٨.

١١. راغب، نبيل. **العنف يجتاح العالم**. (القاهرة: مكتبة المحبة، ١٩٨٩م) ص ٧٠

١٢. انظر: عبد الستار ، فتحي. (٢٠٠٣). **السنة والشيعة: من التناحر إلى التآزر**، *إسلام أون لاين* (الموقع الالكتروني)، ١٠/٥/.٢٠٠٣

١٣. البازعي، سعد. (٢٠٠٨م). **الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف**. المغرب: المركز الثقافي في المغرب، ص ١٦-١٧.